تقرير

ميشال كرم
Michelkaram2@hotmail.com

بعد انتخابه على رأس الكنيسة الكاثوليكية في ايار الفائت، يقوم البابا لاوون الرابع عشر بأولى زياراته الخارجية الى لبنان، تلبية لدعوة رسمية من رئيس الجمهورية جوزف عون والسلطات الكنسية، بحيث تأتي الزيارة في لحظات تاريخية يعيش خلالها الشرق الاوسط تحولات في خارطته السياسية، فيما يواجه لبنان تداعيات الاعتداءات الاسرائيلية وازمات تهدد استقراره

لبنان في قلب الديبلوماسيّة والقوّة الناعمة للفاتيكان: أصغر دولة لبابا يتعملق دولياً حماية للصيغة الفريدة

هذه الزيارة الرسولية التي يقوم بها الاب الاقدس، من 30 تشرين الثاني الى 2 كانون الاول، بعد مشاركته في احتفالات مجمع نيقية في تركيا، هي الرابعة بعد البابا بولس السادس الذي كان له زيارة رمزية توقف خلالها في مطار بيروت في طريقه الى بومباي لحضور المؤتمر القرباني الدولي. مهدت هذه المحطة القصيرة للزيارات البابوية اللاحقة التي حملت طابعا اكثر عمقا للقضايا اللبنانية والعربية، واعد له لبنان ترتيبات استثنائية في ساحة المطار التي امتلأت بالوافدين الرسميين والروحيين من مختلف الطوائف، حيث القى الرئيس شارل حلو كلمة ترحيبية شدد فيها على الرغبة المشتركة في حياة اخوية بين اللبنانيين.

تلاه البابا يوحنا بولس الثاني الذي عبّر عن عمق العلاقة بين الفاتيكان ولبنان بعبارته الشهيرة: "لبنان اكثر من وطن، انه رسالة". وهي عبارة تختصر نظرة الكرسي الرسولي الى هذا البلد بوصفه رمزا للتعايش والحرية الدينية في الشرق الاوسط، وقد زاره في العام 1997 لتسليم الارشاد الرسولي من اجل لبنان الذي تناول رؤية الكنيسة لإعادة اعماره روحيا واجتماعيا بعد الحرب، مؤكدا على دعم سيادته واستقلاله وصيغة العيش المشترك فيه.

ثم زاره لاحقا في العام 2012 البابا بنديكتوس السادس عشر لتوقيع الارشاد الرسولي من اجل الشرق الاوسط، ودعا ايضا الى السلام والحوار، والى حماية التعددية الدينية.

هؤلاء البابوات التزموا النهج الذي رسمه المجمع الفاتيكاني بين عامي 1962 و1965، الذي فتح الباب واسعا امام الحوار مع الديانات الاخرى، واكد على الحرية الدينية كحق اساسي للإنسان. شكل هذا التحول نقطة انعطاف في الفكر الكنسي، اذ اعترف الفاتيكان بالإسلام كديانة توحيدية، ودعا المسيحيين الى التعاون مع المسلمين كأصحاب ايمان مشترك، لا كتنظيم او جماعة عابرة، بل كشركاء في الوجود في هذه المنطقة من العالم، على قاعدة نسج العلاقات والمصالح المتبادلة والعيش المشترك في احترام متبادل.

هذا النهج تكرس أكثر مع البابا فرنسيس الذي رحل قبل ان يحقق رغبته في زيارة لبنان، لكن كانت له محطات فارقة جعلته صديقا للمسلمين والعرب، اذ اعتبر المسيحيين والمسلمين "اخوة"، ودعا الى التقارب بين الديانتين، رافضا بشكل قاطع ربط الاسلام بالعنف او التطرف، متعهدا "دعم العلاقات بين الكنيسة الكاثوليكية وباقي الديانات ولا سيما الاسلام". وقد ترجم هذا التوجه بسلسلة من الزيارات التاريخية الى المنطقة، حملت ابعادا انسانية وروحية وسياسية عميقة.

ففي ايار 2014 زار الاراضي الفلسطينية المحتلة وصلى مع البطريرك الكاردينال بشارة الراعي في كنيسة المهد، مؤكدا على رسالة السلام. وفي العام 2019 قام بزيارة تاريخية الى دولة الامارات العربية المتحدة حيث وقع مع شيخ الازهر الامام الاكبر احمد الطيب وثيقة الاخوة الانسانية من اجل السلام العالمي والعيش المشترك، التي اعتبرت محطة تأسيسية في العلاقات الاسلامية المسيحية. كما زار العراق في العام 2021 والتقى المرجع الشيعي الاعلى اية الله علي السيستاني في مدينة النجف، في لقاء حمل رسالة مفادها أن طريق السلام تمر عبر الحوار والاحترام المتبادل بين الاديان والمذاهب. وواصل البابا فرنسيس دعم لبنان في أحلك ازماته، داعيا المجتمع الدولي الى مساعدته، وخصه برسائل متكررة تعبر عن قرب الفاتيكان من شعبه.

ظل الفاتيكان ينظر الى لبنان على انه قلب الشرق النابض بالتنوع، حيث سعت الكنيسة الجامعة ولا تزال، للحفاظ عليه بوصفه رمزا للتعايش. من هذا المنطلق، اتت زيارة البابا لاوون الرابع عشر الى لبنان تحقيقا لرغبة اسلافه، الذين يؤمنون بأن لبنان بما يمثله من نموذج فريد في التعددية والتعايش، هو المكان الامثل لترجمة دعوة الكنيسة الى "مد الجسور وهدم الاسوار"، اي الى بناء عالم يقوم على المحبة في المسيحية والاخوة في الاسلام. البابا الحالي العارف بميزات هذا البلد، وبتفاصيل الواقع اللبناني، ومعاناته الطويلة من المصالح الخارجية والاقليمية التي حاولت تشويه قيمه، جاء ليؤكد التزام الكنيسة دعم لبنان

في رسالته ومساعدته على مواجهة محنه، وتجديد الامل لدى اللبنانيين بأن بلدهم ارض رجاء وسلام.

البابا الذي نراه بزيه الابيض المهيب حاملا رمزية الايمان، هو في الوقت نفسه رجل دولة لبى دعوة رسمية، مما جعل الزيارة حدثا ديبلوماسيا بقدر ما هي روحية. فالزيارة لم تكن كنسية فحسب، اذ تضمنت لقاءات مع قادة سياسيين

> **الفاتيكان اصغر دولة يتجاوز تأثيرها اضعاف حجمها الجغرافي**

ومرجعيات روحية من مختلف الطوائف، الى جانب محطات دينية بارزة مثل مزار ضريح القديس شربل في عنّايا، لذلك فان رسائل الحبر الاعظم كانت رسائل مزدوجة: سياسية بحكم كونه رئيس دولة، وروحية بصفته رأس الكنيسة الكاثوليكية.

اخذت الزيارة حيزا من الاهتمام فور الاعلان الرسمي عنها، فرحب الرئيس عون بها، وشكر الحبر الاعظم على تلبيته دعوته، وقال: "هذه الزيارة الى وطننا في بداية حبريته، ليست مجرد محطة رسمية، بل لحظة تاريخية عميقة تعيد التأكيد ان لبنان، رغم جراحه، لا يزال حاضرا في قلب الكنيسة الجامعة، كما في وجدان العالم، مساحة للحرية، وارضا للعيش المشترك، ورسالة انسانية فريدة تعانق السماء وتخاطب ضمير البشرية". واعتبر ان الزيارة "تشكل علامة فارقة في تاريخ العلاقة العميقة التي تجمع لبنان بالكرسي الرسولي، وتجسد الثقة الثابتة التي يوليها الفاتيكان لدور لبنان، رسالة ووطنا، في محيطه والعالم".

كما رحب مجلس البطاركة والاساقفة الكاثوليك في لبنان بالزيارة، وشكر قداسة البابا على محبته الابوية واهتمامه الخاص بلبنان وشعبه، راجيا ان تحمل هذه الزيارة الرسولية للبنان سلاما واستقرارا، وان تكون علامة وحدة لجميع اللبنانيين، مسيحيين ومسلمين، في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ وطننا.

كذلك سارع لبنان الرسمي والكنسي الى التحضير للزيارة على كل المستويات، اسوة بما تقوم به الدول حول العالم عند استقبال رأس الكنيسة الكاثوليكية، اذ تتحول الى ورشة عمل ديبلوماسية وروحية كبرى، حيث ينهمك القادة السياسيون والمرجعيات الدينية في اعداد استقبال يليق بشخصية استثنائية، رغم ان الفاتيكان هو اصغر دولة في العالم من حيث المساحة (0,44 كيلومتر مربع) وعدد السكان (882 شخصا وفق احصاء 2024)، الا انه يشغل مكانة رمزية ◄

وروحية هائلة، كونه الكرسي الرسولي لأكثر من مليار كاثوليكي حول العالم.
لا تقتصر اهميته على البعد الديني فحسب، بل يستمد ثقله ايضا من ارثه الثقافي والفني العريق المحفوظ في متاحفه وارشيفه، ومن دوره الدائم في الدفاع عن قضايا السلام وحقوق الانسان والاخلاق وحل النزاعات على المستوى الدولي. لذلك ينظر الى الفاتيكان كدولة يتجاوز تأثيرها اضعاف حجمها الجغرافي، وتتعامل دول العالم مع زيارات الباباوات كحدث استثنائي يحمل رسائل عميقة وابعادا تتجاوز الزيارات البروتوكولية.
فالفاتيكان دولة مهمة لأنها تمثل نموذجا فريدا للقوة الناعمة، تمارسها ليس بواسطة القوة العسكرية او الاقتصادية، بل بسلطتها الروحية التي تمنحها منصة ديبلوماسية ووزنا اخلاقيا وشبكة معلومات لا تضاهى على مساحة العالم، وبالتالي فان التأثير في القضايا العالمية لا يتطلب بالضرورة ان

> **سقوط النموذج الفريد في لبنان نكسة لرؤية الباباوات لمفهوم الاخوة بين الاديان**

تكون الدولة تملك مساحة شاسعة او موارد مادية كبيرة، بل قدرة على حشد القلوب والعقول حول القضايا الانسانية والعادلة والمحقة، وهكذا تصبح أصغر الدول لاعبا عملاقا على المسرح العالمي.
دولة الفاتيكان المستقلة نشأت في 11 شباط عام 1929 من خلال معاهدة لاتران بين الكرسي الرسولي ومملكة ايطاليا، واصبحت كيانا جديدا بعدما كانت جزءا كبيرا من وسط ايطاليا وتعرف بالولايات البابوية التي تخضع مباشرة لحكم الكرسي الرسولي منذ القرن الثامن حتى عام 1870. لكن مبنى الفاتيكان بدأت عملية بنائه بالشكل المتعارف عليه في عام 1513 خلال حبرية البابا يوليوس الثاني واستكمله البابا ليون العاشر، ويشمل كاتدرائية القديس بطرس والكنيسة السيستينية وغيرها من المباني.
الروابط الروحية مع لبنان لم تكن مع انشاء الفاتيكان دولته، بل امتدت جذورها الى عمق التاريخ، وبدأت مع الرسالة الشهيرة التي وجهها رهبان دير مار مارون على نهر العاصي الى البابا هرميسداس سنة 517. كما تعمقت هذه الروابط منذ اوائل القرن الثامن مع البطاركة الموارنة وسواهم من بطاركة الكنائس الشرقية، ومن ابرز محطاتها مشاركة البطريرك ارميا العمشيتي في مجمع لاتران الرابع سنة 1215. كذلك امتدت الى المسلمين في عهود بعض خلفاء السلطنة العثمانية وتعززت منذ مطلع القرن العشرين، والى الدروز خلال عهد

المعنيين والشهابيين ولا سيما في حقبة الامراء فخر الدين ويوسف وبشير الشهابي، فيما اقام الكرسي الرسولي صلات خاصة بالبيوتات اللبنانية والعائلات الحاكمة من مختلف الطوائف. ظلت هذه العلاقات ثابتة منذ نشأتها الى يومنا هذا، ترتكز على ترسيخ دعائم الاخوة والتلاقي بين جميع اللبنانيين تحت سقف التنوع والتعددية.
لكن هذه العلاقات التي كانت متقطعة، انتظمت مؤسساتيا عندما تأسست سنة 1584 المدرسة المارونية في روما في عهد البابا غريغوريوس الثالث عشر، وقد لعبت دورا في انتاج نخبة من العلماء والمفكرين الذين عرفوا الغرب على التراث الشرقي. لم تقتصر رسالتهم على ابناء الكنيسة فقط، بل انفتحوا على المسيحيين والمسلمين، لبنانيين واوروبيين، ليشكلوا جسرا حضاريا بين الشرق والغرب، بينما اسهم خريجو هذه المدرسة في ترسيخ قيم الحوار والتلاقي بين مختلف الطوائف اللبنانية. استمرت

> **العلاقات مع الكرسي الرسولي شملت اللبنانيين مسلمين ومسيحيين**

المدرسة المارونية في عطائها لأكثر من قرنين، واسهمت من خلال علمائها في بناء طبقة مثقفة لعبت دورا في بلورة الهوية اللبنانية وصياغة خطاب وطني جامع يقوم على المعرفة والاحترام المتبادل.
في هذا السياق، بادر البابا بيوس الحادي عشر الى تجديد المعهد العلمي الشرقي الذي اضاف اليه منبرا مخصصا لتعليم الاصول الاسلامية، في مبادرة سباقة هدفت الى توسيع آفاق الحوار وتعزيز المعرفة المتبادلة بين المسيحيين والمسلمين وتوطيد العيش المشترك.
مع مطلع العام 1762 أنشأ الحبر الاعظم اول "قصادة رسولية" في بيروت كانت بمثابة بعثة ديبلوماسية وروحية للقيام بمهام خاصة، وذلك للتخفيف من مشقات السفر الطويل بين لبنان وروما، ثم الغيت في عام 1947 لتحل محلها السفارة الرسولية، وجرى تدشين العهد الديبلوماسي الحديث بتعيين سفير بابوي، فيما سمى لبنان شارل حلو وزيرا مفوضا لدى الكرسي الرسولي، قبل ان يرفع التمثيل الى مستوى سفارة كاملة ويعين يوسف السودا اول سفير لبناني معتمد لدى الفاتيكان.
لم تقتصر العلاقات مع الكرسي الرسولي على الروابط الروحية، بل تعدتها في مطلع العشرينات لتصبح ايضا دعما ديبلوماسيا من خلال اقناع الفرنسيين باعلان دولة لبنان الكبير عام 1920، ارفقه البابا بنديكتوس الخامس عشر بإعلان تاريخي قال فيه: "لبنان بمسلميه ومسيحييه امانة لدى الكرسي الرسولي"، كما كان داعما قويا لاستقلال لبنان التام عن الانتداب الفرنسي عام 1943. كذلك لعب دورا حاسما في تعزيز الاجماع الدولي والاقليمي الذي ادى الى اتفاق الطائف عام 1989، واقرت اللجنة الثلاثية العربية بأهمية هذا الدور. وكان السينودس الخاص من اجل لبنان، الذي دعا اليه البابا يوحنا بولس الثاني، حدثا كبيرا لمساعدة الكنائس الكاثوليكية في لبنان على الشفاء من الحرب، وشكل الارشاد الرسولي خارطة طريق لمرحلة ما بعد الحرب.
باباوات الفاتيكان، من ضمنهم البابا لاوون الرابع عشر، شكلت زياراتهم في المراحل المصيرية تأكيدا على ان لبنان ليس دولة عادية، بل هو نموذج حي لفكرة التعايش التي يدافعون عنها على الساحة الدولية، ويعتبرون ان حمايتها هي جزء من مسؤولياتهم، لأن سقوط هذا النموذج الفريد سيكون نكسة كبرى لرؤيتهم حول مفهوم الاخوة بين الاديان والشراكة بين الثقافات المتنوعة.